**المحاضرة الأولى: السيميائية**

تعد السيميائية من المناهج النقدية التي عرفها النقد العربي المعاصر نتيجة اطلاعه على منجزات الفكر الغربي، و هي منهج لدراسة العلامات، و هذا المنهج غير قاصر على دراسة اللغة والأدب و حسب، بل يشمل كل صنوف الأنشطة الإنسانية ذلك أن معناها كان في بداية أمرها عاما، حيث اتسع، حتى شمل كل تحليل يتناول الأدب أو غير الأدب بالوصف شريطة أن يتخذ هذا التحليل طرائق مناهج اللسانيات[[1]](#footnote-2)، و لعل هذا ما يؤكذ المعنى الدقيق للسيميائيات حسب مدلول الجذر الغوي للكلمة- و هو علم العلامة و الأنظمة الدالة.

شكلت السيميائية في الخمسينات والستينات من القرن الماضي في المجال الأدبي تيارا نقديا أثرى الممارسة النقدية المعاصرة و أمدها بأشكال جديدة لتناول الوقائع الأدبية و فهمها و تأويلها، فأصبحت تحتل مكانة مميزة في المشهد النقدي المعاصر باعتبارها نشاطا معرفيا بالغ الخصوصية من حيث أصوله و من حيث نجاعته وقدرته على التعامل مع الموارد و المعارف المختلفة – و التي منها النص الأدبي- و من حيث أساليبه التحليلية. ظهر الاتجاه السيميائي بوصفه منهجا نقديا في الستينات من القرن الماضي بعدما أخذت البنيوية في الانحسار نتيجة الانغلاق على النص و إلغائها لكل الملابسات و السياقات المتصلة ببعالمه الخارجي. على أن من دواعي نشأة الطرح السيميائي/ المشروع النقدي السيميائي تحول النقد إلى ممارسة تكتفي بحدود النقد المباشر لمكونات النص، إن الاهتمام الخاص و المتزايد بالسيميائية كان نتيجة حاجة ملحة لمختلف فروع المعرفة لأدوات إجرائية قادرة على الوصف والتفسير و التحليل[[2]](#footnote-3).

تنتمي السيميائية أيا كانت - في أصولها و منهجيتها- إلى البنيوية، إذ البنيوية نفسها منهج لدراسة الأنظمة الإشارية المختلفة في الثقافة العامة... لكن و رغم أن السيميائية تنتمي في أصولها إلى البنيوية إلا أنها جاءت كمنهج نقدي لمناهضة البنيوية بعد أن سادت الشكوك حول المنهجية البنيوية بشتى حقولها، ذلك بسبب أن البنيوية فقدت خصوصيتها لأنها ظلت أسيرة النموذج اللغوي[[3]](#footnote-4)، و هو ما أوقعها في مأزق الوصفية و المعيارية الجامدة. و كان من نتائج ذلك تطابق نتائج التحليل فيها مهما اختلفت حقولها لاعتمادها أنموذجا مسبقا واحدا، كانت تنطلق من نظرة سابقة للعلمية الإبداعية. أثمر هذا المأزق الوصفي للطموح البنيوي عن هدم و تقويض صرح البنيوية حيث كان عام 1968م السيميائية باعتبارها محاولة للخروج عن الوصفية الموضوعية التي أرستها البنيوية، كان هذا الإنجاز بزعامة أقطاب البنيوية أنفسهم، فهذا "بارت" يلخص قوله مؤكدا :"أن صرح اللسانيات أصبح يتفكك اليوم من شدة الشبع أو من شدة الجوع، و هذا التقويض للسانيات هو ما أدعوه من جهتي سيميولوجيا"[[4]](#footnote-5).

إذا، إن التحول من البنيوية إلى السيميولوجيا، هو في الحقيقة تحول من الوصفية إلى البحث عن صيغة مناسبة للاقتراب من الخطابات بحثا عن المعنى بطريقة لم تعرف من قبل. لأجل ذلك جاءت السيميائية بهدف تطوير طرائق منفتحة للقراءة على نقيض البنيوية التي تهدف إلى قراءات منغلقة باعتقادها أن الخطابات تشكل سننها الخاصة بعيدا عن القارئ. ولعل هذا هو الزعم الذي حاولت السيميولوجيا إبطاله معتبرة أن النظام الذي يؤطر معنى مهددا بسبب اتساع المعنى الذي لا يمكن احتواؤه إلى الأبد، و لهذا انطلقت السيميائية في البحث عن كيفية تقويض المعنى لذلك النظام و تحطيم مرتكزاته[[5]](#footnote-6). يدلنا ذلك على أن السيميائيات فتحت أمام الباحثين آفاقا جديدة لتناول المنتوج الأدبي بل إنها أسهمت –بقدر كبير- في تجديد الوعي النقدي من خلال إعادة النظر في طرقة التعاطي مع قضايا المعنى، و في الكشف عن القواعد التي تتحكم في إنتاج المعاني في آثار الأدب و نصوصه، ذلك بإنتاجها (السيميائية) الوصف الصوري لآليات إنتاج الدلالة و إقامة تصنيف للعلامات.

بناء على ذلك، تعد السيميائية بحثا في المعنى من حيث انبثاقه عن عمليات بناء النصوص من جهة، كما أنها نقلت القراءة النقدية من وضع الانطباع والانفعال العرضي الزائل والكلام الإنساني الذي يقف عند حدود الوصف المباشر للوقائع النصية إلى التحليل المؤسس معرفيا و جماليا. و يعتبر المنظور النقدي السيميائي النصوص الأدبية إجراء دلاليا لا تجميعا لعلامات متنافرة، أي التسليم بالوحدة الدلالية. فالسيميائيات كما يرى سعيد بنكراد هي " في نهاية المطاف و بكثير من التبسيط ليست سوى تساؤلات تخص الطريقة التي ينتج بها الإنسان سلوكاته أي معانيه وهي أيضا الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني"[[6]](#footnote-7).

و بخصوص الإنجاز الحقيقي الذي قدمته السيميائية للنقد الأدبي فنبرزه كالتالي:

* توسيع منطقة الفهم في إدراك النظم التي تشمل قدرا من التأويل المنضبط، و ذلك بالتمييز بين أنواع الشفرات المختلفة[[7]](#footnote-8).
* اعتبار النص الأدبي منظومة مفتوحة بصفة متجددة لكي تستوعب المزيد و الجديد من التفسيرات التي كلما تعددت، فإنها تثبت ثراء العمل الأدبي و خصوبته وترفض فكرة النص المغلق والنص النهائي[[8]](#footnote-9).
* اعتبار النص الأدبي كيانا مستقلا بذاته و شخصية متميزة، لكنه في الوقت نفسه على علاقة جدلية دائمة بتطورات الحقول الثقافية الأخرى، أي: التأكيد على الوجود المستقل و الدينامية الخاصة بالعمل الأدبي.
* المساعدة على تحويل العلوم الأدبية من مجرد تأملات إلى العلوم من خلال المظاهر الدلالية والتجلي اللغوي الذي يسمح بتصور مجرد للعلاقات الرابطة بين عناصر العمل و كشف البيانات العميقة الكامنة وراء صياغة العمل الأدبي[[9]](#footnote-10).
* السيميائية –كمنهج نقدي- تطوير للمفاهيم اللغوية والتقنية والأدبية لجعلها قادرة على احتضان التوليفات الإبداعية الجديدة التي تدخل فيها الأشياء في نسيج من الكلمات و الشخوص لتحقيق عمل إبداعي فني... و منهج السيميائية يستطيع – عكس مناهج ما قبل البنيوية – أن يربط بين الإشارات الدالة في النظم الأدبية والفنية الجديدة و بين مرجعيتها في الإطار الثقافي العام[[10]](#footnote-11).
* من أهم ما قدمته السيميولوجيا للنقد الأدبي مفهوم الاعتباطية و ما نتج عنه من إطلاق قيد الإشارة، في ضوء هذا تأسست القراءة السيميائية للنص التي تقوم بإطلاق الإشارات كدوال حرة، لا تقيدها حدود المعاني المعجمية ويصير للنص فعالية قرائية إبداعية، تعتمد على الطاقة التخيلية للإشارة في تلاقي بوعثها مع بواعث ذهن المتلقي يصير القارئ المدرب هو صانع النص[[11]](#footnote-12).

إن المنهج السيميائي من مناهج ما بعد البنيوية قام ليملأ الثغرات التي خلفها النقد البنيوي مناديا باعتبار النص مجموعة من الإشارات المفتوحة على عدد لا نهائي من المعاني و تنطلق القراءة السيميائية في تحليلها للنص الأدبي من مجموعة من الأسس والاعتبارات النقدية نذكر منها:

* النص الأدبي شيء مفتوح غير كامل و غير مكتف، و هو إنتاج لشخص أو أشخاص، و هو يستمد معانيه من الإيماءات التأويلية لأفراد القراء الذي يستعملون الشفرات النحوية و الدلالية و الثقافية المتاحة لهم.
* النص مجموعة من العلامات أو الشفرات، أو هو علامة كبرى: دال يستدعي استحضار الغائب (المدلول). والأدب شفرة أو عرف أو مجموعة سنن متفق عليها ضمن مستوى ما، و السيميائية لا تبحث عن الحقيقة بقدر ما تركز جهدها على عمليات الدال، إنها تبحث في الأنظمة الدلالية أو العلامات أو طرق إنتاجها للمعنى[[12]](#footnote-13).
* الدارس السيميائي لا يعنى مباشرة ببيئة المؤلف و بالظروف المادية الخاصة بعملية الإبداع أو بمقاصد المؤلف أو بالدوافع المعلنة أو الخفية خارج الإنتاج المدروس، لكنه يرمي إلى إنتاج الدلالة و توليدها استنادا إلى نظام الوحدات المكونة له.
* الغاية المستهدفة من الدراسة السيميائية إبراز آلية النص الشعري في خلق المعنى و تبليغ صداه، على أن السبيل إلى ذلك كشف شبكة العلاقات القائمة في صلب النص و قانون تأليف الوحدات الدالة.
* السعي إلى فهم سيرورات إنتاج المعنى من منظور تزامني و لعل هذا ما جعل من السيميائية دراسة شكلانية تنطلق من الشكل أو الدال لمساءلة المضامين أو المدلولات مساءلة تقوم أساسا على البحث المستمر فيما تخفيه الدوال من إيحاءات، أي النظر إلى الكيفية التي قيل بها المضمون و النظر في العلاقات المؤلفة لهذا الشكل ووظيفة الوحدات.
* السيميائية دراسة شكلانية للمضمون، تمر عبر الشكل لمساءلة الداول من أجل تحقيق معرفة بالمعنى، ذلك أنها تنظر في الدليل الشعري الذي يستند إلى عنصرين أساسيين هما: الدال والمدلول، مع إبعاد الواقع المادي أو المرجعي.
* يهدف التحليل السيميائي إلى إدراك العلاقات بين الدال والمدلول، لأن الدال بذاته لا معنى له و كذلك فإن المشروع النقدي السيميائي ليست غايته المعاني لكن " أن يعرف كيف يكون المعنى ممكنا و بأي كلفة أو وسيلة"[[13]](#footnote-14).

أما عن تطبيقات السيميائية في التجربة النقدية العربية المعاصرة، فالمعروف أن المنهج السيميائي واحد من مناهج النقد الغربية التي وفدت إلى العالم العربي في فترة لثمانينات و أخذت مكانتها في النقد الأدبي المعاصر و هو على غرار تلك المناهج أخذ ينتشر في الثقافة النقدية العربية المعاصرة عن طريق الترجمة والمحاولات المنشورة في بعض المجلات وبعض الكتب وبعض المحاولات التطبيقية التي جربت قراءة النص الأدبي قراءة سيميائية. وقد بدأ السيمياء في دول المغرب العربي أولا و بعض الأقطار العربية ثانيا عبر محاضرات الأساتذة منذ الثمانينات عن طريق نشر كتب و دراسات و مقالات تعريفية بالسيميائية، و من الأسماء التي اعتنقت هذا المنهج النقدي و أسست له في نقدنا المعاصر نذكر بوجه خاص: محمد مفتاح، عبد الفتاح كليطو، محمد الماكري (المغرب)، و عبد الله الغذامي (السعودية)، و عبد المالك مرتاض، رشيد بن مالك، عبد القادر فيدوح (الجزائر)، و قاسم المقداد (سوريا)، و صلاح فضل (مصر).

و يعد الغذامي من الذين اعتنقوا السيميائية في كتابه "الخطيئة والتكفير" الذي جمع فيه بين التنظير و التطبيق، و في القسم الثاني من كتابه "تشريح النص" درس قصيدة " إرادة الحياة" للشابي دراسة سيميائية، و استهل دراسته لهذه القصيدة بقوله: " إن اللغة نظام إشاري سيميولوجي والكلمة إشارة تقف في الذهن على أنها دال يثير في الذهن مدلولا و هو صورة ذهنية لموجود عيني"[[14]](#footnote-15). و بعد حديثه عن دور الكلمة انتقل إلى الحديث عن القراءة السيميائية للنص الشعري و عن دور المتلقي في العملية الإبداعية، ثم يبدأ بتحليل القصيدة باعتماده على مجموعة من العناصر كتحديد مصطلح الحركة و السكون، و ذلك من خلال إحصاء أفعال القصيدة ثم اعتمد على مصطلح المد و الجزر الذي يتناول فيه توازن القصيدة و انكساراتها.

و في النقد الجزائري، يأتي عبد المالك مرتاض في صدارة النقاد الجزائريين الأوائل في استخدامه للمنهج السيميائي الذي قارب في ضوئه نصوصا أدبية قديمة و حديثة، و من ذلك دراسته لقصيدة محمد العيد آل خليفة " أين ليلاي أينها" حيث حلل بنية النص وزمنه الشعري و تركيبه الإيقاعي. أما رشيد بن مالك فاهتم بالسيميائية تنظيرا و تطبيقا و ترجمة من أجل تشييد صرح سيميائي جزائري، وقد نالت الأعمال السردية الاهتمام الأوفر في أطروحاته السيميائية كما في كتابه "مقدمة في السيميائيات السردية" و كتابه "البنية السردية في النظرية السيميائية". و تبنى عبد القادر فيدوح السيميائية في كتابه " دلائلية النص الأدبي، سيميائية في الشعر الجزائري" أما صلاح فضل فاعتنق هذا المنهج في كتابه "شفرات النص".

1. - روبرت شولز، السيمياء والتأويل، ترجمة : سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت، ط1، 1994، ص 13-14. [↑](#footnote-ref-2)
2. - ينظر: أحمد أمين بوضياف، إستراتيجية البناء العاملي و ديناميكيته في الخطاب الروائي لموسى ولد بنو أنموذجا، رسالة ماجيستر إشراف علي ملاحي، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص:12. [↑](#footnote-ref-3)
3. - ينظر : عبد الله إبراهيم و آخرون، معرفة الآخر، ص:21. [↑](#footnote-ref-4)
4. - رولان بارت، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توقبال للنشر- الدار البيضاء، ط3، 1993، ص20. [↑](#footnote-ref-5)
5. - عبد الله إبراهيم و آخرون، معرفة الآخر، ص30. [↑](#footnote-ref-6)
6. - سعيد بنكراد، السيميائيات، مفاهيمها و تطبيقاتها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص6. [↑](#footnote-ref-7)
7. - صلاح فضل، مناهج المعاصر، أطلس للنشر و الإنتاج الإعلامي- القاهرة، ط4، 2005، ص87. [↑](#footnote-ref-8)
8. - نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، مكتبة لبنان،(ناشرون)، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، د ط، 2002، ص337. [↑](#footnote-ref-9)
9. - ينظر : أحمد أمين بوضياف، إستراتيجية البناء العاملي و ديناميكية في الخطاب الروائي، ص19. [↑](#footnote-ref-10)
10. - صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص87. [↑](#footnote-ref-11)
11. - عبد الله الغذامي، الخطيئة و التكفير، من البنيوية إلى التشريحية، قراءة لنموذج معاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، 2006، ص51. [↑](#footnote-ref-12)
12. - عبد الله إبراهيم و آخرون معرفة الآخر، ص32. [↑](#footnote-ref-13)
13. - حسن البنا عز الدين، الشعرية و الثقافة، مفهوم الوعي الكتابي و ملامحه في الشعر العربي القديم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص53. [↑](#footnote-ref-14)
14. - عبد الله الغذامي، تشريح النص، مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، بيروت (لبنان)، ط2، 2006، ص17. [↑](#footnote-ref-15)